بسم الله الرحمن الرحيم

ورقة بعنوان:

دور الادب الافريقي في التحرر الوطني

اعداد
د. حاج ابا ادم الحاج
أستاذ مشارك
كلية الموسيقى والدراما
جامعة السودان لعلوم والتكنولوجيا

دور الادب الافريقي في التحرر الوطني

مدخل :

هنالك اجماع عام بين جمهور المستشرقين على ان الادب الافريقي مصطلح يعني ادب المناطق جنوب الصحراء الكبرى حتى التقاء القارة بالمحيط الهندي في اقصى الجنوب والاطلسي، وأن افريقيا قاره تقسمها الصحراء الكبرى الى قسمين مختلفين قسم يقع شمالها ويسمونها افريقيا العربية الاسلامية وآخر يقع جنوبها ويسمونه افريقيا جنوب الصحراء أو افريقيا السوداء.

هذه القسمة الجغرافية طبيعية ولكنها وضعت في اطار سياسي استعماري واضح الهدف هو تشطير القارة. فالصحراء لم تكن فاصلاً قبل السيطرة الاستعمارية، بل كانت طريق الهجرات والقوافل التجارية بين الشمال الافريقي وجنوبه، ولم يكن العرب في عزله عن الزنوج طوال القرون حتى القرن التاسع عشر الذي تمت فيه السيطرة الاستعمارية على شطري القارة.

1/ الأدب الأفريقي بين اللغات المحلية والعالمية :

تلك القسمة الجغرافية كانت لأغراض سياسية لأن انتشار الثقافة العربية الاسلامية جنوب الصحراء الكبرى وتخلخلها في ثقافات الشعوب الزنجية.

الادب الافريقي خارج مجال العربية عاش قروناً عديدة على الاتصال الشفاهي، لم يدون فيه حتى اليوم الا القليل بسبب صعوبات الجمع والتدوين لكثرة اللغات المحلية غير المكتوبة في عهد الحرية واستغلال القارة الافريقية بدأ بعض الدارسين الافارقة في مناقشة معنى الادب الافريقي، فقد تساءل اديب من جنوب افريقيا (مازيس كونين)[1].

1- الادب الافريقي – على شلش، دارب ابن رشد للطباعة، القاهرة، 1971، ص15.

"ما هو الادب الافريقي هل هو ادب منطقة تم تحديدها عاطفياً؟ يقول "كويني" ان الادب الافريقي هو الادب الذي يصور واقعاً افريقياً بجميع ابعاده وهذه الابعاد لا تضم الوان النزوح مع القوى صاحبة السيطرة السابقة على القارة فحسب وانما لهم ايضا النزاعات داخل القارة الافريقية فقد ركز على الجنس الزنجي والثقافة" وقال (ان الادب الافريقي هو ببساطة الادب الموجود في افريقيا ومن السخف ان نتصوره نمطاً خاصاً ذا سمات متينة لها طابعها الافريقي الخاص) أو ذا قيم خاصة مرتبطة بالحضارة الافريقية، بل اضاف انه لا توجد ادب افريقي، وانما يوجد ادب جيد وادب ردئ ولاشئ غير ذلك) [1].

لقد علق عليه الكاتب اليوغندي ذو الاصول الهندية (بهادور بنجاني) بقوله " من المفهوم ضمناً انه توجد ثقافات افريقية عديدة، لا مجرد ثقافة واحدة ومن ثم توجد انواع مختلفة من الادب ذات مجموعة متنوعة في الاساليب والاشكال والمعاني والقيم، وان اوكوبجو نفسه كان يحب ان يحكم على الادب الافريقي بانه ادب اولاً وان يأتي التشديد على افريقية بعد ذلك). [2]

ويتفق الروائي النيجري "شنوا شيبي" مع هذا الرأي ويقول: (لايمكن ان تحشر الادب الافريقي في تعريف صغير فانا لا ارى الادب الافريقي كوحدة واحدة انما اراها كمجموعة من الوحداات المرتبطة، تعني في الحقيقة الجمع الكلي للاداب القومية والعريقة في افريقيا).

لاشك ان متابعة النشاط الادبي المدون في الجزء الواقع خارج مجال العربية في افريقييا تطلعنا على بعض الحقائق المهمة عند فهم هذا النشاط وتقييمه فلقد ظهر الادب الافريقي المدون بلغات اوربية بصفة خاصة في احضان الشعور الوطني

1- الأدب الأفريقي – على شلش، سلسلة عام المفرقة، الكويت،ص85.

2- المرجع السابق،ص2.

والقومي وكان جزءاً لايتجزأ منه، ان كل الكتابات الافريقية الادبية تقف ورائها التيارات السياسسية والثقافية في افريقيا الحديثة.

فالسياسة تشكل ملمحاً اساسياً في الادب والدراما الافريقية لذلك اتسسمت موضوعات الادب والدراما الافريقية بطلب الحرية والعدل الاجتماعي والمساواة وكذلك ايضاً ان صلة افريقيا باوربا والغرب عموماً قد سيطر فيها هذا الموضوع على اعمال الادباء الافارقة في عهد الحرية والاستغلال وقد شغلهم تقييم هذه الصلة وما تضمنه من جوانب روحية اجتماعية وثقافية وسياسية.

فقد وجد العالم ظاهرة ادبية جديدة خارج مجال اللغة العربية في افريقيا وهي ظاهرة الكتابة بلغات اجنبية وافدة إذ أنها تختلف كثيراً عن ظاهرة الكتابة بالانجليزية في افريقيا الشمالية أو بالاسبانية والبرتغالية في افريقيا الجنوبية. ذلك لأن المستوطنين الجدد في تلك البقاع بدأو يكتبون بلغاتهم التي جاءوا بها، وعلموها الاهالي الاصلين في الوقت نفسه نسبه لانهم لم يغادروا أو يهاجروا بل ذابوا في مستوططناتم وصاروا امما جديده لها ادابها وفنونها.

اما في افريقيا فقد جاء المستوطنون الجدد او المستعمرون بتعبير ادق وحاولوا الكتابة بلغاتهم حاولوا تعليمها. بل فرضها على الاهالي الأصليين. لكنهم ما لبثوا ان غادروا وهاجروا تحت وطأة الكفاح العنيف ضد وجودهم. ومع ذلك بقيت لغاتهم وانتشرت وكادت في اوقات كثيرة ان تحتل التعبير الادبي، وان تقضي على اللغات المحلية العديدة التي لم يكن معظمها يتمتع بالجدية مكتوبة.

يقول المستقرق الالماني (ان ادب افريقيا التقليدي ادب شفاهي ولكن منذ ان بدأ الافارقة الاتصال بالثقافتين العربية والغربية انتخبوا اعمالاً ادبية مكتوبة وهذا ما فعله بعض الكتاب الافارقة، ثم اقتضى على اثارهم الكثير من الكتاب الافارقة بعد ذلك).[1]

1- جيرالدمور – سبعة ادباء في افريقيا، ترجمة علي سلس، القاهرة، دار الهلال 1977م ص25.

يوضح هنا أن مجال الاعمال المكتوبة يقع في منطقة التشابك بين ثلاث ثقافات هي الافريقية والعربية والغربية. أما الادب الذي جاء من المنطقة التي اشتبكت منها الثقافتان الافريقية والاسلامية فاسمية بالادب الافروعربي، واما الادب الذي جاء من المنطقة التي اشتبكت توجد فيها الثقافتان الافريقية والغربية فاسمية الادب الافريقي الجديد او المستحدث (NEW AFICAN) لا بأسى بهذا التحليل مستغرق "بان" والقمة التي توصل اليها فكلاهما يعكسان واقعاً موضوعياً لظاهرة الادب في افريقيا خارج مجال اللغة العربية وهو في الوقت نفسه واقع غني متعدد الابعاد فليست اللغات الاوربية الثلاثة الوافدة الانجليزية والبرتغالية والفرنسية، هي التي تحمل مهمة التعبير الادبي، فثمة لغات اخرى افريقية محلية بعضها انجليزية مكتوبة مثل السواحلية في شرق افريقيا والهوسا والفولغدي في غرب افريقيا والسوتو والزولو في جنوب افريقيا وبعضها الاخر وهو الغالبية العظمى لم يعرف ابجدية مكتوبة بعد.

لم تكن تجرية الكتابة الادبية خارج مجال اللغة الغربية هينة ميسورة للجميع، فقد اكتنفها منذ البدء جو من الشعور المزدوج بالغربة داخل الوطن نتيجة لانتشار المستعمر في افريقيا، والغربة داخل اللغة نتيجة لاضطرار الكتاب الافارقة الى التفكير بلغة الأم والكتابة بلغة المستعمر بل أن الكتاب الافراقة الذين اتيح لهم ان يكتبوا بلغات اقوامهم فقد عانوا شيئاً من هذا الشعور المزدوج بالغربة نتيجة تدوينهم لغاتهم بابجدية اجنبية لاتينية.

هذا بالإضافة إلى خضوعهم لمقياس ومعايير السلطة الاجنبية. إلا أنها ومع ذلك فقد ارتبطت هذه التجربة بفكرة الاتزام السياسي الاجتماعي الثقافي. حيث يقول المستغرق الانجليزي "كليف وبك" (ثمة حقيقة هامة لابد ان نضعها في الذهن هنا هي وحدة الحياة الثقافية الافريقية الحديثة، هي وحدة تكشف عن ان الثورة السياسية والاجتماعية هي التي ألهمت الكتاب الافارقة الجدد).[1]

1- على شلش، في الادب الافريقي، دارالمعارف، 1963، ص25.

لقد كان الكاتب الافريقي أو الفنان التقليدي ومازال مشغولا بالقيم الاجتماعية فقد كان يوظف دائماً كما يقول الشاعر النيجيري "وولي سونيكا" (كمسجل لاخلاق مجتمعه وقومه وكذلك كصوت للرؤيا في عصره)[1] فهل تغير الوضع مع الكاتب الحديث ابان السيطرة، وفي ظل الحرية والاستقلال. يقول الروائي النيجيري "شنوا اشيبي" عن وظيفة الكاتب الافريقي (من الواضح لي ان الكاتب الافريقي المبدع الذي يحاول تجنب القضايا الاجتماعية والسياسية الكبيرة في افريقيا المعاصرة سينتهي الى ان يكون غير ذي موضوع مثل ذلك الرجل السخيف في المثل الشعبي الذي يترك البيت المحترق كي يطارد فأراً هارباً من اللهب) ويقول الروائي السنغالي "عثمان سميني" (حين يبدع الاديب فهو لايفكر في العالم وانما يفكر في بلده).

يؤكد هذه المعاني الناقد النيجيري "ج.د. كيلام" في كتابه عن (روايات شنوا اشيبي) فيقول (ان الادب الافريقي الحديث شأنه شأن كل الاداب، فيه التزام خاص بتكوين القيم الاساسية للمجتمع الافريقي وهو ايضاً انعكاس لهذه القيم ونقد لها، انه يخلق احساساً بحياة المجتمع الافريقي، أن اشيبي يدرك الدور التربوي للكاتب الافريقي حيث يصفه بأنه (النقطة الحساسة في المجتمع) فالكاتب مجهزاً لكي يعرفه ماهي اشد اهتماماً الناس ولمن يكتب.

2/ الإضرار للتعبير عن أفريقيا باللغات الأوروبية :

لاشك ان الدور التربوي والاخلاقي الذي تعلمه الكاتب الحديث في هذه الرقعة من اسلافه ومعاصريه قد تضاعف مرتين: مرة حين كتب في ظل السيطرة الاستعمارية ومرة حين كتب في ظل الحرية والاستقلال. ذلك لانه كان يكتب في المرة الاولى وهو في حالة حرب مع قلمه ومع نفسه. أما الان هو يكتب وهو في حالة مضاعفه مع قلمه ومع نفسه ذلك لما خلفه المستعمر ومسئولية بناء الدول الجديدة.

1- على شلش، في الادب الافريقي – دار المعارف ، 1963، ص25.

أصبحت على الكاتب الافريقي اليوم واجبات ومهام عديدة فمثلاً على الكتاب الأفارقة أن يحاربوا الفردية والقبلية التي تفشت مع السيطرة الاستعمارية وعليهم محاربة مظاهر القيم الغربية التي اجتاحت الدول الافريقية.

يقول في ذلك سونيكا : (كل هذه وغيرها واجبات ومشكلات في وقت واحد ولكن لعل على رأسها جميعاً مشكلة التعبير باللغة الاجنبية الوافدة، حيث ما زال الكاتب الافريقي خارج مجال اللغات الأوربية أو يشعر بالقلق اذا كان يكتب بلغة افريقية مدونة. ففي كلتا الحالتين يعاني من ضيق رقعة القراء الناتجة عن ارتفاع نسبة الامية ولعل ابرز مظاهر هذه المشكلة يتضح عند تاليف الدراما بلغات اوربية حين يضطر الكاتب الى أن يضع الانجليزية مثلاً على لسان شخصيات محلية امية غير قادرة اصلاً على الحديث بالانجليزية أو فهمها.[1])

لقد طوع الكتاب الافارقة اللغات الاوربية للوفاء بتوصيل القيم والموروث الافريقي كما اشار الى ذلك الكاتب الروائي النيجيري "شنوا اشيبي" حيث قال (ان اللغة الانجليزية ستقدر على حمل ثقل تجربتي الافريقية لكن لابد أن تكون الانجليزية جيدة، بحيث تظل على صلة مستمرة بالمورث الافريقي وتتغير حيث المتغيرات الاجتماعية والثقافية للبيئة الافريقية الجديدة).

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه كم من القراء الافارقة الذين يقرئون روايات اشيبي الانجليزية؟ والسؤال الذي يثير قضية اللغة وتوظيفها خلال افرازات الكتاب الافارقة، يتعلق بهذا الادب الافريقي المكتوب باللغة الاوربية كأدب للتصدير.

ان الادباء الافارقة الذين يكتبون بلغات اوربية لم يختاروا ذلك على الاطلاق، وانما فرض عليهم الامر فرضاً. إما بسبب عدم وجود لغة افريقية مكتوبة في متناول ايديهم ليوصلوا عبرها هذا التراث الافريقي خارج افريقيا وإما بسبب عملية التعلم.

1- جبراطور- سبعة ادباء عن افريقيا ترجمة على شلبي، القاهرة – دار الهلال ، 1977، ص35.

حيث أن المستعمر للغته والتعلم عن طريقها لم يكـن مناخـاً يغيـر اللغـات الأوربية. لقد ذكر ذلك الكاتب السنغالي (ليوبلد سيدار سنغور) حين قال(انه لم يختـار اللغة الفرنسية في الكتابة ولكن اللغة الفرنسية هي التي اختارته) [1].

لذلك لابد ان يأتي الوقت الذي تتم في عملية التدوين باللغات الافريقية واتاحتها للتعبير المكتوبن وقد بدأت هذه العملية في عدد من الدول التي تحررت حديثاً.

3/ أهمية الكتابة باللغات الأفريقية والمحلية :

اشرنا سابقاً معاناة الادباء الأفارقة في كتاباتهم الابداعية لـذلك حتـى تكتمـل الصورة نتناول الدارس لهذا الادب انه يعاني ايضاً من بعض المشكلات التي تتعلـق بالمنهج وهذه المشكلات بالنسبة للمتلقي أوالدارس يمكن اجمالهم:

الادب الشفاهي:

- لاشك ان الادب والدراما الافريقية المكتوبة باللغات الاوربية أوالافريقية تشكل مساحة ضئيلة على خريطة التعبير الادبي المكتوب خارج نطاق اللغة العربية، ولاشك ايضاً ان هذه النسبة الضئيلة تعد احدث واقل شهرة في تلك المسـاحة العريضة التي يحتلها الادب الافريقي الشفاهي الذي لايفرق حالة محددة وتناقله الشفاة من مكان الى مكان ومن جيل الى جيل وهو ادب اسمتد منـه الـبعض الادب الحديث لافريقيا بصورة اشبه بالادبين الاغريقي والروماني في كونهما ركيزة للادب الاوربي الحديث الذي لاشك انه من اهم المؤشرات فـي الادب العالمي المكتوب.
- ظهرت اول محاولة اوربية هامة لجمع الوان هذا الأدب في المانيا عام 1896م اعدها المستفرق "اوجست سيدل" في صورة منتخب كبير من الادب الشـفوي بعنوان (القصص الافريقية وحكاياتهم) حيث كتب "سيدل" مقدمه لمنتخبيه هـذا دعا فيها القارئي الاوربي الي رؤية الافريقي المتوحش وتخيلـه وهـو يفكـر ويشعر ويتخيل وينظم الشعر مثل بقية البشر، ثم جـاء المسـتفرق الالمـاني

---

[1]- جبراطور – سبعة ادباء عن افريقيا ترجمة على شلبي،مرجع سابق، ص35.

"ليوفرونيوس فنشر" منتخباً من الحكايات والقصص بعنوان (الـديكاميرون) او (الليالي العشر) وتلاه بعد ذلك زميله "هاينوف" بكتـاب : (حكايـات خياليـة افريقية) نشر عام1921م [1] ، ثم اعاد "فروبنوس" الكره فـي نشـر منتخبـه الضخم (اطلانطيس) او (القارة المفقودة) الذي ظهر في 12 جزا حتـى عـام 1927 واحتوى على 4128 صـفحة وضـم فئـات القصـص والاسـاطير والخرافات والحكايات الخيالية، وقد تميزت هذه المحـاولات وغيرهـا بـان اصحابها كانوا على دراية بافريقيا على عكس بعض المحاولات الاخرى التي صور فيها اصحاب صورة للافريقي المتوحش المتخلف عقلياً، وكان المستعمر وراء ذلك وهو يبرر وجوده في افريقيا بان ينقـذ الافارقـة ويخـرجهم مـن الظلمات الى النور. حيث يرى ان افريقيا بلا حضارة ولا تاريخ. اما محاولات الافارقة انفسهم فلم يشتد ساعدهم الا في فترة ما بين الحربين العالميتين ولـم يقودوا عملية جمع هذا التراث الشـفوي الا مـؤخراً فـي عصـر الحريـة والاستقلال. بالرغم من وجود محاولات افريقية مبكـرة ترجـع الـى عـام 1843م.[2]

- لاشك ان الادب المكتوب حل هذه المشكلةحلاً عمليـاً، بمـا اتاحتـه للقـارئ والدارس معاً من فرص للاطلاع والبحث، كما ساعدت البلبوجرافيا من ناحية اخرى على حل المشكلة بما اتاحته من قوائم ومنها وفهارس باللغات الاوربية، كذلك انها ساعدت على الترجمة على لتسيير المراجع بالنسبة للغات الاوربيـة بصفة خاصة. ومع ذلك فان جانباً هاماً من هـذا الادب المكتـوب باللغـات الافريقية، مازال بعيداً عن متناول الدراس غير المتخصص في هذه اللغـات. ولاشك ان الترجمة كفيلة يحل المشكلة، كما ان الادب الشفاهي غير المكتـوب لم يجمع حتى اليوم بطريقة شاملة ومنظمة. هذا غير ان المشكلة فـي النهايـة

[1] 1- جبراطور- سبعة ادباء من افريقيا- دار الهلال ، 1977، ص35.

[2] 2- الرواية الأفريقية- رضوان عاشور - دار بن رشد - القاهرة، ص12.

هي مشكلة المراجع التي تظل عقبة حقيقية امام الدراس. فما نقل الى العربية في افريقيا قليل ومبعثر، ومازال في مرحلة مبكرة.

انه على الرغم من الوفرة النسبية في الاعمال الابداعية للافارقة خارج مجال اللغات الافريقية، إضافة إلى الامتداد الزمني الطويل نسبياً لتاريخ هذه الابداعات، وفرة المنتخبات التي جمعت اعمالاً اجريت حول الادب الشفاهي ، الا ان حجم الدراسات التي اجريت حول الادب الشفاهي والادب المكتوب ما زالت محدودة للغاية، بل وتعتمد اعتماداً كبيراً على المستفرقين. حيث لا يمكن بالطبع أن بعض ذلك الادب بجامعات الدول الافريقية في عصر الحرية والاستقلال من مسئولية البدء في فحص هذه الاداب ودراستها والتأريخ لها.

- لقد مضى حين طويل من الدهر كان النمط السائد في دراسة الابداع الادبي الافريقي هو المنتخب او كتاب المختارات الذي يجمع فيه محرره عدداً من الاعمال الادبية التى يقدم لها بمقدمة من عند الكتاب او يعهد بها الى كاتب سواه، مثلما فعل الكاتب السنغالي "ليوبولد سيدار سنغور" في مؤلفه (منتخب الشعر الزنجي والملاجاشي الجديد) باللغة الفرنسية 1948م. الذي كتب مقدمته الكاتب "جان بول سارتر". او ما فعله زميله الكاتب "داماس" في منتخبه (شعراء يكتبون بالفرنسية) 1947م او ما فعله الكاتب "ماريو الذرادي" في منتخبه (منتخب الشعر الزنجي بالبرتقالية) 1958م او ما فعلته الكاتبه "آن تيبل" في كتابها (الادب الافريقي بالانجليزية) 1965 وغير ذلك في كتب كثيرة للادباء الافارقة منداخل القارة أو خارجها اتخذت شكل المختارات مع مقدمة وصفية أو تاريخية أو تحليلية [1].

مشكلة المنهج :

ظل هذا النمط سائداً حتى منتصف الستينات حيث استقرت اوضاع كثير من الدول الافريقية بعد الحرية والاستقلال وانشئت دوريات ادبية رافقت ظهور الجامعات

1- الرواية الأفريقية – رضوى عاشور، دار بن رشد، القاهرة ، 1975، ص12.

الجديدة واقسام الاداب التي انتشرت في شرق القارة وغربها . عندئذ بدأ في الظهور نمط آخر من الدراسات الشاملة المتأنية التي توخت التحليل والمقارنة للاداب المكتوبة باللغات الاوربية واتخذ هذا النمط صورتين اساسيتين: صورة المقال أو البحث الموجز وصورة الكتاب.

أما صورة المقال والبحث الموجز فقد تولت نشرها الدوريات أو منتخبات الدراسات النقدية قبل الدراما في افريقيا وهو مجموعة من المقالات النقدية التي نشرت عام 1976م ضمن سلسلة (الادب الافريقي اليوم) التي تصدرها دار هاينمان الانجليزية أو المقالات التي تنشرها مجلة (الوجود الافريقي) وهي تصدر بالفرنسية في باريس [(1)]، اما صورة الكتاب الذي يخصص لدراسة ظاهرة الادب الجديد في افريقيا فهي اقل كماً من الصورة السابقة ومن امثلتها كتاب (الادب الافريقي في القرن العشرين) الذي الفه (اوسكار رونالد داثورني) 1976م وقد حاول "داثورني" في هذا الكتاب ان يؤرخ للادب خارج مجال لغتنا تاريخياً وصفياً وتحليلاً عاماً.
وقسمه الى تسعة فصول هي على التوالي:

الادب المكتوب بلغات محلية – روائي غرب افريقيا في اللغة الانجليزية ورائي شرق افريقيا ووسطها وجنوبها، في اللغة الانجليزية – الشعر الافريقي بالانجليزية، الزنوجه والادباء السود – الادب الافريقي في اللغة البرتغالية – النثر والشعر الافريقيان المعاصران في اللغة الفرنسية – الدراما الافريقية في الانجليزية والفرنسية ومن الواضح ان "داثورني" ([2]).

اقتصر على الاداب المكتوبة ، ولم يتناول الادب الشفاهي غير المكتوب ولكن كتابه يعد شاملاً في موضوعه ، ومن هذه الدراسات للادب والدراما الافريقية ما احتفى بظاهرة جزئية واحدة او اديب واحد مثل (روايات شنوا اشبي) للكاتب (كيلام) أو (شعر ل .س . سنجور) للكاتب (ميزو) أو مقدماته للرواية الافريقية للكاتب

1- علي شلبي – في الادب الافريقي، القاهرة، دار المعارف سلسلة اقرأ ، 1963م، ص75.

2- المرجع السابق، ص25.

(بالمر) وكلها كتب اصدرتها دار (هاينمان الانجليزية) أن المنهج الذي سار عليه (داثورني) هو منهج تاريخي وصفي تحليلي ولكن السؤال الذي يفرض نفسه ، إلى أي مدى يستطيع الباحث أن يرتبط باللغة كاطار عام كما في هذه الكتابات وليس كاداة للتعبير تختلف من كاتب إلى كاتب ومن نص ادبي ومن آخر .

4/ ارتباط الأدب الافريقي بالتحرر الوطني :

كان من الطبيعي أن ترتبط مرحلة التحرر الوطني في افريقيا بتأكيد الثقافة الوطنية والارث الثقافي الافريقي وابرازهما والاعلاء من شأنهما بدلاً عن مواجهة محاولات الطمس والتشويه التي رافقت السيطرة الاستعمارية . فمن المعروف ان هناك تناقضاً رئيسي بين اهداف الاستعمار في السيطرة الاقتصادية والسياسية على شعب من الشعوب وبين ازدهار الثقافة الوطنية لهذا الشعب. فالاستعمار كما وصفه (اميلكار كايرال) زعيم حركة التحرر في غينيا بيساو قبل استشهاده نفي المسار التاريخي للشعب المستعمر بإيقاف تطور قواه الانتاجية. هذا في حين ان ثقافة الشعب التي تعكس واقعه المادي والفكري هي ثمرة تاريخة بقدر ما هي عامل يحدد مسار هذا التاريخ.

لقد ظهر الادب الافريقي المكتوب باللغات الاوربية الفرنسية والانجليزية والبرتغالية كشكل من اشكال التمرد على المضمون الايدلوجي للاستعمار. كما قد عبرت الأعمال الابداعية الادبية والدرامية منذ بدايتها الاولى قبل الحرب العالمية الاولى وفي فترة ما بين الحربين عن اتجاه وطني سواء بالدعوة المباشرة الى التحرر الوطني أو بتأكيد الوجود التاريخي لافريقيا. كذلك عن طريق الكتابة عنه واستلهام التراث الشعبي الافريقي. إذ يبدو هذا الاتجاه واضحاً في اثيوبيا (اثيوبيا حرة – دراسات في التحرر العرقي 1911 للكاتب جوزيف كيسلي)[1] وتستمد هذه الاعمال قيمتها في تاريخ الرواية من غرب افريقيا .[2]

1- المرجع السابق، ص 45.

2 -Joseph easeley – Hay ford Ethiopia – pres 1973, p. 56.

تجدر الاشارة هنا إلى ظاهرة ثقافية لعبت دوراً بارزاً في نشأة الرواية في نيجيريا بشكل خاص وفي غرب أفريقيا عموماً . هذه الظاهرة هي (ادب سوق أونيتشا) [1] الذي ظهر بعد الحرب العالمية الأولى الذي ساعد على انتشاره اتساع قاعدة التعليم. بالتالي فقد ازداد عدد القراء ، وازدهرت في هذه البلدة الواقعة على نهر النيجر بشرق نيجيريا طباعة الكتاب تأليفاً ونشراً وطباعة وتوزيعاً . حيث اعتمدت في ذلك على انتاج الكتيبات التي يقرأها طلاب المداس وصغار الموظفين واصحاب الحرف. كما تتفاوت مواضيع هذه الكتيبات المكتوبة بالانجليزية في الغالب واحياناً (بالايبو) وهي اللغة المحلية ، ما بين الأقاصيص ذات المضمون الاجتماعي أو السياسي والتاريخي المحلي والامثلة والحكايات الشعبية والنصائح العلمية الخاصة بالامتحانات والسلوك الاجتماعي. حيث يتضح للقارئ نوعية هذا الادب من عرض بعض عناوين هذه الكتيبات. فمنها مثلاً (الحبيب المخدوع) (احزان الحب) (آخر أيام لوممبا) (الدكتور نكروما ونضاله من أجل التحرير)(كفاح ومحاكمات جومو كنياتا) (كيف تتعلم الانجليزية والايبو والهوسا والبوربا) .

5/ توظيف الأدب الافريقي في دعم وتعزيز حركة التحرير الوطني:

من الواضح ان ادب السوق اونتيشا والاقبال الكبير عليه يعكس شيئاً من متطلبات الواقع الافريقي الجديد وهو واقع تسهم من خلفه الروافد الحضارية الافريقية التقليدية والروافد الغربية. فيؤكد عدد من النقاد ان هذا الادب رغم افتقاره للجدية والعمق الا ان له أثراً كبيراً على ظهور الرواية الافريقية. اذ كان يمثل صورة ثقافية اسهمت في خلق قاعدة عريضة من القراء .

كانت هذه هي البدايات. أما الاعمال الروائية ذات القيمة الحقيقية فقد بدأت تظهر تباعاً منذ بداية الخمسينات وان عام 1960م [1] الذي استقلت فيه سبعة عشرة دولة افريقية وسمى بعام افريقيا الذي سبقته سنوات من العمل المكثف من أجل التحرر على المستوى السياسي والثقافي. اللذان كانا في الغالب متصلين متفاعلين ،

---

1 - المرجع السابق ، ص 13

ومن هنا لم يكن من المصدافه ان تشهد الخمسينات نهضة ادبية افريقية وزخماً ابداعياً كان فيه الرواية والمسرحية نصيب كبير.

كانت روايات (شريب بنيز النخيل) 1952م المكتوبة بالانجليزية للروائي النيجيري (اموس تيوتولا) هي أول رواية ذات قيمة فنية تظهر في غرب افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية . تلتها رواية (الطفل الاسود) 1953م بالفرنسية للكاتب الغيني (كامارا لاي) هاتان الروايتان رغم اختلافهما في التناول للواقع السياسي بشكل مباشر، الا انهما على اختلافهما تجتمعان في تأكيد الذات الوطنية عبر محاولة الارتباط بالجذور الحضارية الافريقية والاستفادة من التراث الثقافي الافريقي وماضي افريقيا .

ان الرواية في غرب افريقيا نشآت مرتبطة بحركة التحرر الوطني معبرة عنها لانها اضطلعت بمهمات تقديم الصورة الاصلية للواقع الافريقي والتي تشكل بالضرورة دحضاً للصورة الزائفة التي دأب على رسمها الكتاب الأوربيين وأتباعهم من الافارقة عن صورة الواقع الافريقي ، تقول الصورة الزائفة ان افريقيا ليس لها تاريخ ولا ماضٍ حضاري وان الانسان الاوربي هو الذي حمل نور المعرفة الى هذه القارة المظلمة. هذا ويقدم الادب الافريقي الذي نشأ في كنف الارساليات الدينية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين خير مثال على هذه الصورة الخادعة. حيث يتسم هذا الادب الهابط فنياً بتمجيد كل ما هو اوربي. فالشخصيات من روايات الارساليات الدينية تنقسم دائماً الى اخيار واشرار . فالاخيار هم الاوربيون المسيحيون الذين يتحلون بالطيبة والنبل والتحضر والاخيار ايضاً هم اتباعهم من الافارقة الذين يريدون ان يفتحوا قلوبهم لنور الهداية الاوربية. اما الاشرار فهم الافارقة المتمردون. ذلك لانهم غير راغبين في التحضر وكفرة متعطشون للدماء او سذج متخلفون عقلياً[(1)].

1- jon einz jahn – NEW AFRICAN Literature new York, 1969 – p 34.

ليس الادب الافريقي المتأثر بالمضامين الاستعمارية دائماً أدباً دعائياً فجأ. فلدينا العديد من الروايات الاوربية المكتوبة بشكل جيد والتي تقدم في ذات الوقت صورة زائفة لافريقيا. لعل ابرزها من النماذج هي رواية (قلب الظلام) للكاتب الانجليزي البولندي الاصل (جوزيف كونراد) و(لان كونراد) الذي كان كاتباً قديراً فان التجربة التي ينقلها من روايته ليست مسطحة. فالأمر إذاً يحتاج من الناقد جهداً أكبر ودقة شديدة ليكشف عن ان ظاهر الرواية الذي لا يبدو عنصرياً يخفي وراءه موقفاً عنصرياً هو الموقف النموذجي لدى الانسان الاوربي في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . ان (كونراد) ابان من كتاباته النهب الاوربي للقارة الافريقية واصفاً اياه انه (اقدز تكالب على النهب عرفه تاريخ الضمير الانساني والكشف الجغرافي).

كذلك يؤكد (كونراد) في اعماله الروائيه على وجوده بين الحلم والمثال والذي يقول أن الانسان الأوروبي يحمل النور والحضارة الى افريقيا والواقع هو نهبها . ان روايته (قلب الظلام) مكتظة بالإشارات العنصرية للأفريقيين ففيها هم متوحشون وبرابرة تربطهم بالانسان الاوروبي روابط قديمة كأنها ذكريات من ازمنة سحيقة وعصور ما قبل التاريخ . ولا تحكم الافارقة في راي (كوتراد) اية قوانين أو اعراف وهم لا يتمتعون باي قدر من الانضباط . كذلك يستخدم (كوتراد) افريقيا كصورة رمزية للشر والروابط بقلب الانسان – كل انسان الشر الذي يبدأ في التحرك والظهور ما أن تختفي قيود المجتمع المتمثلة في الشرطة وافريقيا هي (قلب الظلام) الذي يعود بالانسان الاوربي المتحضر الى ازمنة بدائية سحيقة تدفعه الى التحلل الخلقي ، ونهر الكونغو هو رمز الانسان البدائي الشرير . اما نهر التايمز فهو صورة الانسان وقد روضته الحضارة الطبيعية [1] .

هكذا وجد الانسان الافريقي الذي يطمح ان يكون كاتباً نفسه مواجهاً بركام من الاكاذيب والصورة الخادعة التي تقدم المفاهيم العنصرية في اشكال فنية متطورة

1 -jon einz jahn – NEW AFRICAN Literature new York, 1969 – p 34.

يصعب معها القارئ العادي اكتشاف موقفها الردئ . فبماذا يتسلح الكاتب الافريقي ؟ ما هو ماضيه ؟ ما هو تاريخيه ؟ هذا التاريخ الذي لا غنى له عنه اذا اردت ان يرى صورة ذاته والجماعة التي انتمت اليها ؟ يسأل الكاتب ولقد تعلم في المدارس التي انشأها الاستعمار والتي لم تكن هنالك مدارس سواها .

أنه أي الافريقي بلا تاريخ وان الانسان الاسود لم يكن في واقع الامر موجوداً. كان نائماً في القارة المظلمة حتى جاء المكتشف الاوروبي وايقظه ليدخل مجرى التاريخ . ايقظه بمزيج من التقوى والعنف بالكتاب المقدس والبندقية .

يعلن الافريقي بان هذا التاريخ باطل . يعلنها الكاتب الافريقي وهو يبدأ في رحلة بحثه عن تاريخه الحق الذي يعيد له كرامته الانسانية ، ويصبح الكاتب الافريقي مسكوناً بالتاريخ ، في قول الكاتب الكيني (نجوجي واثنقو)[1] يحاول الكاتب الافريقي التواصل مع ما كان من امر شعبه ، ويجتهد ليسجل لقاءه مع تاريخه الذي يشكل له ضوءاً وسلاحاً في طريقه الى المستقبل .

يكتب في نفس المنوال الشاعر الغاني (كوفي اورنور)

ايها الاباء حيكوا لنا الايام الماضية

حتى نلبسها تحت ثيابنا الجديدة .

بعد ان نغتسل

في الدوامة حيث تصيب الانهار الكثار

والاسئلة تقود إلى اسئلة ، ورحلة الكاتب الافريقي في البحث عن ملامح لماضيه ان كانت ضرورية في استعادة الثقة بالذات. الا انها تستمد قيمتها من اسهامها في تحديد شكل الحاضر واي طريق يتفرع منه الى المستقبل ، ولم يكن ذلك بالرحلة السهلة. إذ كان على الكاتب ان يبحث عن أي القيم يحتفظ بها وايها يستبعد ؟ لذلك كان على الكاتب الافريقي ان يحدد موقفه من الذات الافريقي التقليدي من جهة ومن الحضارة الغربية الوافدة من جهة اخرى ، وتحديد موقفه من الثقافة الافريقية التقليدية. ذلك

[1] 1- Ngugi wa thingo "the writer and his past" hermern – London – 1979 – p41.

يستتبع تحديد موقفه من الثقافة السائدة بين افراد قبيلته. مثلاً الديانة التي تعتنقها . مفهومها الفلسفي للوجود والانظمة الاجتماعية للقبيلة. كما يجب على الكاتب الافريقي اتخاذ موقف من المسيحية كدين وافد ضرب في ارض الواقع الافريقي كما عليه ايضاً وهو يبحث عن هويته الاهتمام باللغات لاداء للتعبير وان يتخذ موقفاً منه سواء كان ذلك انجليزية أو فرنسية او برتغالية. التي وفدت مع المستعمر واصبحت مع مرور الوقت وسيلة اساسية من وسائل الاتصال بين ابناء القارة الافريقية المتعدد القبائل واللغات .

يواجه الكاتب الافريقي بكل هذه المسئوليات ليس فقط ككاتب يسهم في بناء الصرح الحضاري للقارة الافريقية. لكن ايضاً كطليعة مثقفة في بلاد تنفض عن كاهلها ثقل الحمل الاستعماري وتعاني من العديد من المشاكل. فالكاتب الافريقي لا يملك الا التفاعل معها . وانه في قول (وولى سوينكا) [1] ان الكاتب الافريقي لا يستطيع تجاهل المزاج العام من مجتمعه ومن هنا يستبعد الكاتب التعبير عن مزاجه الخاص الذي تفصله المزاج العام للقارة .

ان الكاتب الافريقي منشغل بالتشابكات السياسية والاجتماعية لواقعه اليومي ويحتل هذا الانشغال المكانة الاولى في كتابته الابداعية. مما يجعل الغالبية العظمى من الانتاج الادبي والمعاصر في افريقيا يتخذ طابعاً سياسياً وينقل الرؤية الاجتماعية لافريقيا. هذا الالتزام بالمشاكل السياسية للواقع الافريقي دفع النقاد الغربيين الى انتقاد الكاتب الافريقي على ما اسموه حماساً زائداً في التعبير. هذا ما يجيب عليه الروائي النيجيري "شنوا اشي" في مخاطبته النقاد الاوربيين بقوله: (اعتقد ولقد اعتقدت منذ اللحظة الاولى التي بدأت الكتابة فيها إن الجدية والحماس مناسبان تماماً في حالتي لماذا؟ اعتقد لان لدى حاجة عميقة الى تغيير الاوضاع التي اعيش في ظلها، وأن اجد لنفسي مكاناً اكبر قليلاً مما تقرر لي في هذا العالم وان المبشر الابيض الذي ترك رفاهية الحياة في اوربا لينتقل في غابتي البدائية، لقد جاء لتغيير عالمي بنا

[1] 1– وولي سوينكا – الكاتب في الدول الافريقية – لندن – 1967م – ص 11.

الامبراطورية والذين حولوني الى انسان تحت الحماية البريطانية، ولان يبدو لي واضحاً انني لو اردت ان اغير الدور والهوية التي قدرها لي عملاء الاستعمار هؤلاء فسأحتاج ان استعيد بعض حماسهم، ولايمكن بطبيعة الحال ان احلم بتحقيق ذلك عن طريق الاستغراق في اللهو). [1]

هذه الصورة للكاتب الافريقي "المتحمس" مناقضة للصور الشائعة للكتاب الاوربي التي بدأت بذورها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لدى الكتاب الرومانسيين في اروبا ثم اخذت تتطور فيما بعد. لتتخذ اكثر اشكالها في صورة الشاعر الملعون الذي ينفصل من الجماعة ويحتقرها ويؤمن بالفن من اجل الفن. لذلك اختار الكاتب الاوربي عدم مواجهة هذا المجتمع والهروب منه.

في مقابل الفنان الاوربي الذي يقلم في هدوء أظافره تبرز صورة الكاتب والفنان الافريقي الذي يقبل راضياً ان يدفع من حياته وفنه ديون الاسلاف ويضطلع بدور المعلم مؤكداً ان الفن الافريقي كان دائماً يتمتع بوظيفة اجتماعية ومن هذا المجال يقول الروائي النيجيري "شنوا اشيبي". (سوف اكون راجياً لو ان رواياتي خاصة الروايات التي تدور احداث في الماضي) لم تفعل سوى تعليم قرأي ان ماضيهم لم يكن ليلاً طويلاً ايقظهم منه الاوربيون الاوائل. فكانوا مخلصيهم باسم الرب إذ ان الفن شئ هام ولكن التربية ايضاً مهمة). [2]

---

[1]– الرواية في غرب افريقيا – رضوي عاشور– دار بن راشد – القاهرة ، 1985، ص22.

[2] – نفس المرجع السابق، ص22.

الخاتمة:

ان الادب الافريقي نشأ كتمرد على المضمون الايدولوجي للاستعمار وكان يعبر باشكال مختلفة، متضمناً الحرية الوطنية والتحرير الوطني بالبحث دائماً في الماضي الافريقي لتأكيد الجزور الافريقية واستلهام التراث. ذلك ينقد الحاضر والسخرية حتى مسألة بهدف تقويمها.

لعلنا لمسنا خلال هذه الورقة كيف تطور الادب الافريقي خارج مجال العربية على مدار السنوات التي انقضت من هذا القرن وكيف تنوعت اشكاله داخل اللغات الاوربية الثلاث وهي الانجليزية والفرنسية والبرتقالية. التي فرضت على الكاتب الافريقي، لكنه روض اللغة الوافدة ليرتبط بالقضايا الوطنية واصبحت سلاحاً فعالاً من اسلحة المقاومة والنضال.

لقد تميز هذا الادب الناشئ جنوب الصحراء بعدد من الخصائص لعلنا لمسناها في ثنايا هذه الورقة ويمكن اجمالها في الآتي:

1. ارتبط الادب الافريقي بقضايا القارة واستنكار السيطرة الاستعمارية.
2. الوضوح الذي يصل الى حد الشفافية في الاسلوب، خاصة التي كتبت بالانجليزية والبرتقالية لأنها مباشرة.
3. التلقائية في التعبير، حتى يبدوا الادب ساذجاً بعض الشئ كما في اعمال بعض الكتاب الافارقة.

إن هذه الخصائص ستبقى مميزة لهذا الادب الافريقي في المستقبل لأن مستقبل هذا الادب الافريقي معقود على هذه الاجيال، واذا كان على الاجيال الماضية أن تثبت وجودها وتؤكده في الادب وتدافع عن الوجود الافريقي، فإن الاجيال التالية سيكون عليها أن تقيم تقاليداً جديدة غير منعزلة عن التقاليد القديمة لتستمد منه قوة الحاضر.

هكذا كان الادب الافريقي جنوب الصحراء في ماضيه البعيد والقريب وهكذا سيكون ايضاً في مستقبله ايا ماكان تغير هذه القيم وهو أمر طبيعي لايحتمل الخلاف.

ان كلمات اشيبي التي تعبر عن موقف العديد من الكتاب الافارقة بل وكتاب العالم الثالث، توضح أن الكاتب الافريقي يختار الوطني أولاً وهو اختيار يتركه مرة خلف قضبان السجون ومرة متشرداً في المنافي. كما ان طبيعة المتغيرات الاقتصادية والسياسية لافريقيا تجعل من الصعب ان يعبر الكاتب عن هموم فردية. لان اكثر همومه الحاحاً هي ما يلح على الجماعة من هموم وهو في قول الكاتب النيجري "وولي سوينكا" (ان الكاتب الافريقي هو من الجماعة واذنها ومعرفتها الخاصة وضميرها عليه ان يظل يقظاً متمسكاً بهذه الصفات التي تمكنه من اعادة النظر في الامور ما حوله) [1].

لقد لعب الكاتب الافريقي دائماً في المجتمع الافريقي دور السجل لتجارب مجتمعه وقيمه وعاداته. كذلك كان صوت الرؤية في زمانه ما يشير الى سونيكا تحديداً هو أن وطنية الكاتب الافريقي الان تتطلب منه اكثر من تمجيد ماضي افريقيا والهجوم على الاستعمار في صورته القديمة. انه مطالب بالوقت النقدي في الواقع الافريقي. إذ أن لكل مرحلة متطلباتها وأن سنوات الاعداد للاستقلال الوطني كانت بحاجة لكتابات تؤكد الذات الوطنية بالاعلاء من شأنها وتمجيد تاريخيها. فالستينيات والسبعينيات تتطلب شيئاً مختلفاً والكتاب القدامى من امثال "سونيكا" وسميتي عثمان وغيرهم واعون بضرورة الوقوف في وجه هذه (اللانساني السيئ) ومن يمثلونها بالحاجة الملحة الى تبين روح وطنية في التعامل مع الثقافة الوطنية تأخذ منها وتستبعد وتضيف. ذلك وبما ان الثقافة في النهاية جسد حي نام ومتطور لتاريخ كل شعب وان تجارب الحاضر لابد وأن تنعكس بأشكال متفاوته في هذه الثقافة.

الوطن دائماً هو المحور والمرتكز. هذه هي الحقيقة الاولى تواجه دارسي الادب والدراما الافريقية تختلف الامزجة ويختلف الرؤى وتختلف الاساليب الفنية وتتفاوت القدرات ولكن الوطني، تاريخه، واقعه المعاصر هو دائماً الشاغل الرئيسي ويستمد الكتاب الافارقة في انتمائهم الوطني مضمون اعمالهم بل وفي بعض الاحيان شكل هذه الاعمال.

---

[1] – وولي سونيكا – الكاتب في الدول الافريقية – لندن– 1967، ص18.

المراجع:

1. الرواية في غرب افريقيا – د. رضوان عاشور – دار بن الرشد – القاهرة 1975م.
2. الادب الافريقي – د.علي شلش – سلسلة علم المعرفة – الكويت – 1971م .
3. سبعة ادباء في افريقيا – ترجمة علي شلش تاليف جيرالدمور – دار الهلال – القاهرة 1977م.
4. مختارات من الادب الافريقي – بغداد – دار الشئون الثقافية 1986م – علي شلش.
5. علي شلش – مختارات من الادب الافريقي – بغداد : دار الشئون الثقافية ، 1986م .

- Ngugi W thingo – the writer and his past Herman – London-1972.
- Joseph "Conrad – heart of Darkness" kimbraug co- new York 1971.